جزاء السابقين الأولين

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾[1] [الأنفال].

إن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]. قد أعطانا الحكم الشرعي في ولاية بعضهم لبعض. وأوضح أن هؤلاء لا بد أن يكونوا أولياء، وهذا هو

---

(١) قال البيضاوي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ هم المهاجرون هجروا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج. ﴿وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمباشرة القتال. ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أو بالنصرة والمظاهرة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾. أي من توليهم في الميراث، وقرأ حمزة «ولايتهم» بالكسر تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملاً. ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين. ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو الموازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو الموازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾. تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر.
﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين وقرئ «كثير». ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال. ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تبعة له ولا منة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار.
تفسير البيضاوي [١/ ٢٩٣: ٣٩٣].

الحكم المطلوب منهم، ولكنه سبحانه في هذه الآية الكريمة قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾.

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً، أي أن غيرهم لا يكون مؤمناً حقاً، مثلما تقول: فلان هو الرجل، يعني أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها. وهذه مبالغة إيمانية.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الجزاء. والجزاء إما أن يكون في الدنيا، ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقاً، وإما أن يكون الجزاء في الآخرة. وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: تمحى سيئاتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي تضاعف لهم الحسنات في الجنة.

فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية. وهو حكم مطلوب منهم. والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم في الدنيا والآخرة. والجزاء في الدنيا أنهم هم المؤمنون حقاً، أما الجزاء في الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا. ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب؛ وهو رزق كريم.

والمغفرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة في شيء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع في المعاصي، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم في هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً. والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس، ولكن الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادي وما هو معنوي.

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، والعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل. وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التي فيها محاسن. وإذ جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن.. فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق في قمة الكرم، وهناك

رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطي إنساناً أجره ليس هذا مناً أو كرماً منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك.

إذن.. فهو رزق في قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه؛ لأنك قد تبذل جهداً كبيراً في زراعة أرضك ثم تأتي آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً. وقد تذهب إلى مكان وأنت خالي الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير.

إذن.. فالرزق يعرف مكانك ويأتي إليك ولكنك لا تعرف أين هو وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعاماً تشتهيه ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتي طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت. وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات في دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن.. فهذا الطعام الذي أكلته وتحول إلى دم في جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم.

ويقول ربنا تبارك اسمه وتعالى جده: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

فالرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط في الدنيا بأسباب العمل، فالرزق في الآخرة يأتيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال].

إذن.. فمن آمن من بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم. هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوّلياً إلى الله، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً في أشياء ومختاراً في أشياء يفعلها أو لا يفعلها، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له؛ فيفعل إذا قال له: «افعل»، ولا يفعل إذا قال له: «لا تفعل»، وهو بهذا يكون قد اختار أمر الله وحكمه وآثره على أمر غيره رغبة منه إليه سبحانه وطمعاً في مرضاته ورحمته.

إن معنى الإيمان أن يستقر في قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعداداً جيداً، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار في أشياء، وجعلنا من رحمته مقهورين في أشياء.

مثلاً دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها، وكذلك التنفس فإنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك، ولكن الأفعال التي تصدر منك بعد فكر، تلك هي الأفعال التي جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق سبحانه أن تكون مقهوراً لفعل، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ليبتلي عباده فيحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إذن.. فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان، وللإنسان انتماءات أخرى؛ ينتمي لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله، ولكنها كلها دائرة في فلك الإيمان ولذا يجب أن يكون الانتماء الأول لله تعالى، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضي ذلك. والإنسان المؤمن هو الذي يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل ويجعل كل ما يمكله في خدمة ذلك؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك. إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله. فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حباً في الله تعالى وطاعة له سبحانه.

فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم في إيواء المهاجرين ونصرتهم حباً لله تعالى وطاعة له سبحانه.

أما الفئة الثانية: فهناك نقص في إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

أي ليس مطلوباً أن توالوهم، لكن إذا استنصروكم في الدين فعليكم النصر، لماذا؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل.

والفئة الثالثة: هم الذين جاءوا من بعد ذلك، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا

ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاماً يكون كالمؤمنين الأوائل؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال].

عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل

بعد موت أبي طالب، عم النبي ﷺ، والسيدة خديجة رضي الله تعالى عنها اشتد أذى الكفار لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه. فكان ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم؛ بغية أن يجد من ينصره ويحميه؛ حتى يبلغ رسالة ربه سبحانه وتعالى، وورد أنه ﷺ كان يقول: «يا بني فلان؛ إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوني، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به»[(١)].

(١) قال الحافظ في الفتح: ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ كان بعد موت أبي طالب قد خرج إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره، فلما امتنعوا منه رجع إلى مكة فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج[(١)].
وذكر بأسانيد متفرقة أنه أتى كندة وبني كعب وبني حذيفة وبني عامر بن صعصعة وغيرهم، فلم يجبه أحد منهم إلى ما سأل[(٢)].
وقال موسى بن عقبة عن الزهري: «فكان في تلك السنين ـ أي التي قبل الهجرة ـ يعرض نفسه على القبائل، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحداً منكم على شيء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي، فلا يقبله أحد، بل يقولون: قوم الرجل أعلم به». وأخرج البيهقي، وأصله عند أحمد، وصححه ابن حبان من حديث ربيعة بن عِبَاد ـ بكسر المهملة وتخفيف الموحدة ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل» الحديث[(٣)] وروى أحمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث جابر «كان رسول الله يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً =

(١) انظر السيرة لابن هشام [٢/ ٣٦].
(٢) انظر السيرة لابن هشام [٢/ ٣٦ ـ ٤٦].
(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل [٥/ ٣٨]، وأحمد في المسند [٣/ ٤٩٢]، والطبراني في الكبير [٥/ ٤٥٨٤]، والحاكم في المستدرك [١/ ١٥]. وذكره الهيثمي في المجمع [٦/ ٢٤] وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

= منعوني أن أبلغ كلام ربي. فأتاه رجل من همدان فأجابه، ثم خشي أن لا يتبعه قومه فجاء إليه فقال: آتي قومي فأخبرهم ثم آتيك من العام المقبل. قال: نعم: فانطلق الرجل وجاء وفد الأنصار في رجب»[1].

وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل» بإسناد حسن عن ابن عباس «حدثني علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، وتقدم أبو بكر وكان نسابا فقال: من القوم؟ فقالوا: من ربيعة. قال: من أي ربيعة أنتم؟ قالوا: من ذهل ـ ذكروا حديثاً طويلاً في مراجعتهم وتوقفهم أخيراً عن الإجابة ـ قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، وهم الذين سماهم رسول الله ﷺ الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره، قال: فما نهضوا حتى بايعوا رسول الله ﷺ»[2]. انتهى.

فتح الباري [٧/ ٦٢٣: ٦٢٤].

وذكر الدكتور أكرم العمري: لم يدع رسول الله ﷺ فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة ـ تفوته، وخاصة في موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة، قال ربيعة ابن عباد الدؤلي ـ وهو شاهد عيان: «رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: «أيها الناس، لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم.

قلت: من هو؟

قالوا: هذا أبو لهب»[3].

ومما خاطب به الناس في ذي المجاز: «يأيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[4] وكان =

(١) أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٣٩٠]، والترمذي [٢٩٢٥] مختصراً، وقال: حديث غريب صحيح وأبو داود [٤٧٣٤]، وابن ماجه [٢٠١] وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٣٣٥] وانظر الصحيحة [١٩٤٧].

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة [٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٧].

(٣) أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٤٩٢] بلفظ: رأيت رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس إلى الإسلام بذي المجاز وخلفه رجل أحول يقول: لا يغلبنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم. قلت لأبي وأنا غلام: من هذا الأحول الذي يمشي خلفه؟ قال: هذا عمه أبو لهب. وأخرج الطبراني في الكبير [٥/ ٤٥٨٤]، والحاكم في المستدرك [١/ ١٥] بلفظ: رأيت رسول الله ﷺ يمشي في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «يأيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئاً» قال: ووراءه رجل يقول: يأيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت: من هذا الرجل؟ قيل: أبو لهب. وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد في المسند [٤/ ٣٤١] عن ربيعة بن عباد بلفظ: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه =

= الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئاً، وهو لا يسكت بل يكرر دعوتهم، وأبو لهب يصيح: إنه صابئ كاذب يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى(١).

ومما خاطب به رسول الله ﷺ في الموقف: هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟ فأتاه رجل من همدان فقال: من أنت؟ فقال الرجل: من همدان.

قال: فهل عند قومك من منعه؟

قال: نعم.

ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه. فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل.

قال: نعم.

فانطلق. وجاء وفد الأنصار في رجب(٢).

وهذا يدل على أن الحادثة في العام الحديث عشر من البعثة؛ فإن الأنصار قدموا في العام الحادي عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى، ثم في العام الثاني عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية، ثم كانت الهجرة إلى المدينة.

الاتصال بالأنصار ودعوتهم:

يذكر جابر بن عبد الله الأنصاري: «مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة»؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر ـ كذا قال ـ فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه =

= فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب.

وأخرجه الحاكم في المستدرك [١/ ١٥]، والطبراني في الكبير بنحوه والأوسط باختصار بأسانيد. وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات.

(١) أخرجه في المسند [٤/ ٦٣] وذكره الهيثمي في المجمع [٦/ ٢٤، ٢٥] وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل» فأتاه رجل من همدان فقال: «ممن أنت» فقال الرجل: من همدان، قال: «فهل عند قومك من منعه»؟ قال: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل، قال: «نعم» فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب.

وأخرجه أحمد في المسند [٣/ ٣٩٠] واللفظ له. والترمذي [٢٩٢٥] مختصراً وقال: حديث غريب صحيح، والحاكم في المستدرك [٢/ ٦١٢، ٦١٣] وصححه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٣٣٥].

= بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام[(١)]. وكانت الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة فقد «قدم سويد بن الصامت الأنصاري مكة حاجاً أو معتمراً فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟

فقال له رسول الله: وما الذي معك؟.

قال: مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان.

فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها علي»، فعرضها عليه. فقال له: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى عليّ، وهو هدى ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول حسن. ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بُعاث[(٢)]. وعلى أية حال فلا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه.

وقبل يوم بعاث بيسير ـ وهو اليوم الذي جرت فيه وقعة بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس بعد قتل الكثير من الطرفين وفيهم من أكابرهم، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين ـ سعى الأوس لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عدداً، فقدم أبو الحيسر أنس بن نافع في وفد من بني عبد الأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم الرسول ﷺ، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال أحدهم ـ وهو إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً ـ: أي قوم؛ هذا والله خير مما جئتم له. فانتهره أبو الحيسر فصمت، وقام رسول الله ﷺ عنهم، ورجعوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعاث، ثم مات إياس بن معاذ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلماً، فقد استشعر الإسلام في لقائه مع رسول الله ﷺ في ذلك المجلس[(٣)]. =

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٣٢٢، ٣٣٩، ٣٤٠] واللفظ له، وابن حبان في صحيحه [٦٢٧٤]، والحاكم في المستدرك [٢/ ٦٢٤، ٦٢٥] وصححه، ووافقه الذهبي. وذكره ابن حجر في الفتح [٧/ ٦٢٧] وقال: وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان من حديث جابر... وذكر الحديث.

(٢) انظر السيرة لابن هشام [٢/ ٤١، ٤٣]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٤١٩]، وابن كثير في البداية والنهاية [٣/ ١٤٧].

(٣) أخرجه أحمد في المسند [٥/ ٤٢٧]، والطبراني في الكبير [١/ ٨٠٥]، والحاكم في المستدرك [٣/ ١٨، ١٨١]، وصححه، قال الذهبي: مرسل. وذكره الهيثمي في المجمع [٦/ ٣٩] وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

❁❁❁

= وإذا كان الرجلان من الأوس اللذان استشعروا الإسلام فلم تذكر المصادر قيامهما بالدعوة في وسط قومهما، فإن البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى.

قال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟».

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «أمن موالي يهود؟».

قالوا: نعم.

قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟».

قالوا: بلى فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[(١)].

وذكر ابن إسحاق إسلامهم وقيامهم بالدعوة في المدينة[(٢)] ولعل استشعار الأنصار لحاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها وقعة بعاث قبل سنتين فقط من هذا اللقاء، لعل ذلك كان سبباً هيأه الله تعالى لإسلامهم، وكذلك فإن مقتل رؤسائهم في بعاث خفف من التزاحم على الزعامة والأنفة من الدخول في الإسلام خوف فقدان السلطان والزعامة، وكذلك فإن الأنصار كانوا يجاورون يهود، وهم أهل كتاب، فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار فلا شك أن أذهانهم كانت مهيئة لفهم الإسلام أكثر من سواهم.

السيرة النبوية الصحيحة [١/ ١٩٣ ـ ١٩٦].

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/ ٤٥]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٤٣٣، ٤٣٤]، وابن كثير في البداية والنهاية [٣/ ١٤٨، ١٤٩].

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/ ٤٧].

بيعة العقبة الأولى

أثناء عرض النبي ﷺ على قبائل العرب في المواسم لقيه نفر من الخزرج أراد ﷺ بهم خيراً، فلما طلب منهم رسول الله ﷺ أن يجلسوا ليكلمهم استجابوا له ﷺ، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، وكان هؤلاء النفر يعلمون من اليهود المجاورين لهم في المدينة أن نبياً قد أظلّ زمانه وهو مبعوث الآن، وكان اليهود عليهم لعنة الله يتوعدونهم بأن يقتلوهم قتل عاد وإرم، فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له جعل هؤلاء النفر يستجيبون لدعوته ﷺ فقال بعضهم: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقكم إليه، فصدقوه. وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام وانقلبوا إلى قومهم يدعونهم ويبشرونهم فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم ما كان من أمر رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب (١).

---

(١) قد جرت بيعة العقبة الأولى في العام التالي على لقاء وفد الخزرج، حيث حضر اثنا عشر رجلاً؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال من الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

إن مصدر المعلومات الصحيحة الرئيسي عن بيعة العقبة الأولى هو عبادة بن الصامت الخزرجي ـ وهو شاهد عيان مشارك بالبيعة ـ وقد جاءت روايته في الصحيحين وسيرة ابن إسحاق، لكنها عند ابن إسحاق أوضح وأكمل ونصها كما يلي: قال عبادة بن الصامت: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب ـ: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن =

= شاء غفر وإن شاء عذب»[1]. والمقصود أنهم بايعوا على وفق بيعة النساء التي نزلت بها الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ [الممتحنة: ١٢] بعد صلح الحديبية[2]؛ حيث لم يرد في بيعة العقبة الأولى ذكر القتال.

ومعنى ذلك أن عبادة حدّث بهذا النص بعد نزول الآية فشبه بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء. ويلاحظ أن نص البيعة يكل معاقبة الجرائم إلى الله تعالى في الآخرة؛ لعدم تشريع الحدود الإسلامية مما يؤكد قدم النص وأنه يخص بيعة العقبة الأولى. ولما أنجزت بيعة العقبة الأولى، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين. فقام بمهمته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام، ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية[3].

السيرة النبوية الصحيحة [١/ ١٩٧، ١٩٨].

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/ ٤٩].

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترينه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، قال: فبايعناه على ذلك».

٧أخرجه البخاري [٣٨٩٢] واللفظ له، ومسلم [١٧٠٩/ ٤١].

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح [١/ ٩٥].

(٣) انظر سيرة ابن هشام [٢/ ٥٠]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٤٣٧].

بيعة العقبة الثانية

لما انتشر الإسلام في المدينة ـ خاصة وأن نفراً من أهل مكة قد هاجروا إليها، وعاشوا في طمأنينة وسلام بين إخوانهم المسلمين الجدد ـ قال الأنصار إلى متى نترك رسول الله ﷺ ومن معه من إخواننا يكابدون المشقة والأذى فأرسلوا له ﷺ في موسم الحج سبعين رجلاً وتواعدوا شعب العقبة وبايعوه على السمع والطاعة، وأن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ممن حضر هذه البيعة مع رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب، وكانت هذه البيعة تسمى بيعة الحرب(١).

(١) لما انتشر الإسلام في المدينة، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يلاقي عنت قريش وأذاها الذي كان يشتد على مر الأيام، قدم وفد الأنصار في موسم الحج فبايعوا بيعة العقبة الثانية.
قال جابر بن عبد الله الأنصاري: فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، نبايعك.
قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».
قال: فقمنا إليه فبايعناه. وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله.
قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها.
قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة، وقد نظر العباس =

= في وجوه وفد الأنصار ثم قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحدث مما يدل على غلبة الشباب على الوفد[1].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب، لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب[2].

وتقدم رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري ـ وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية ـ تفاصيل مهمة؛ قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا.. ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق.. وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا.. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ـ فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فبين أن الرسول ﷺ في منعة من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه. فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط. فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم بالدم والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم =

---

(١) أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٣٢٢، ٣٢٣] واللفظ له، والحاكم في المستدرك [٢/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥] وصححه، ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح [٧/ ٦٢٧] وقال: وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم.. وذكر الحديث.

(٢) عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب، وكان عبادة من الاثني عشر الذين بايعوا في العقبة الأولى على بيعة النساء في السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، ولا ننازع في الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.
أخرجه أحمد في المسند [٥/ ٣١٦].

❁❁❁

= اثنى عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس».
وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق؛ إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا.
فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».
فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[1].
وهكذا عبرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبي ﷺ إليهم بتلهف كبير.
السيرة النبوية الصحيحة [١/ ١٩٨ ـ ٢٠١].

(١) أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٤٦١ ـ ٤٦٢] واللفظ له، والطبراني في الكبير [١٩/ ١٧٤] وذكره الهيثمي في المجمع [٨/ ٤٥ ـ ٤٨] وقال: رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرّح بالسماع.
وانظر السيرة لابن هشام [٢/ ٦٤، ٦٥]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٤٤٨].

من أسباب الهجرة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾[١] [الإسراء] يستفز أي يستخف، فهو من الخفة، مثلما تقول لابنك المتثاقل عن القيام: فز، أي انهض بسرعة وخفة[٢]. والأرض: المقصود بها مكة. والنبي ﷺ كان يحب مكة ولكن الكافرين بالغوا في إيذائه ومحاربته حتى يكره الإقامة بها[٣]، ويخرج منها؛ لأنهم يظنون أنه إذا خرج من

---

(١) قال ابن كثير: قيل: نزلت في كفار قريش؛ هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم؛ فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ [الإسراء: ٧٧].
وعن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قال: هَمَّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر، وكذلك كانت سنة الله تعالى في الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك.
ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره [١٣٣٥٧]، والسيوطي في الدر المنثور [٥/ ٣٢٠].

(٢) قال في القاموس القويم للقرآن الكريم: فَزَّ عن الشيء: أسرع منصرفاً عن. واستفزه: طارده وأخرجه من مستقره، قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي: يطردونك منها ويخرجونك منها.
وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ [الإسراء: ٦٤]. أي: خوّفهم وطاردهم واجعلهم ينصرفون عن الحق.
القاموس القويم [٢/ ٨٠/ ٨١].

(٣) عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحَزْوَرَة فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت». أخرجه أحمد في المسند [٤/ ٣٠٥]، والترمذي [٣٩٢٥]، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه [٣١٠٨]، والحاكم في المستدرك [٣/ ٤٣١]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٣٠٨٢].

مكة ستنتهي دعوته؛ لأنهم كانوا يرون أن أنصاره وأتباعه في مكة، فإذا تركها خسر الأتباع والمناصرين ولذلك يُطمئن الحق سبحانه رسوله ﷺ أنه حتى لو خرج من مكة فلن يلبثوا بعده إلا قليلاً. فهم يؤذون الرسول ﷺ ليخرج، ولكن الخروج لا يكون إلا بأمر اللّه تعالى. فاللّه سيتركهم حتى يمكروا ويبيتوا لقتل الرسول ﷺ، ثم يبطل سبحانه مكيدتهم وتآمرهم وينجيه بقدرته وعظمته ﷺ من مكرهم.

وذلك لأن الحق سبحانه وتعالى أخبر القوم المعادين لرسول اللّه ﷺ أنهم لن يظفروا به بأي شكل من الأشكال، فلن يقدروا عليه لا بالمواجهة ولا بالتبييت والمكر. حتى لو استعانوا بالجن في الكيد للرسول ﷺ أو محاولة النيل منه، فإن اللّه تعالى سينجيه.

فكأنه سبحانه يقول لهم: لا سبيل لمحاربة هذا الدين؛ لأنكم لن تستطيعوا أن تتغلبوا عليه لا جهاراً ولا تبييتاً، وحتى لو استعنتم بالجن الأقوى منكم، فلن تقفوا في وجه هذه الدعوة؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة].

إذن.. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء] فالمراد هنا وإن كادوا ليجعلونك تخف إلى الخروج من مكة ليخرجوك منها. ولو حدث ذلك فلن يلبثوا خلافك إلا قليلاً[1]. وصدق الحق سبحانه فيما أخبر به رسوله ﷺ، فبعد عام من الهجرة

---

(1) قال مجاهد وقتادة والحسن: نزلت هذه الآية في هَمّ أهل مكة بإخراجه ﷺ من أم القرى، ولو أخرجوه منها لما أمهلوا، ولكن اللّه أمره بالخروج فخرج.

والمعنى: قارب أهل مكة أن يزعجوك بعداوتهم وشدة إيذائهم؛ ليخرجوك من الأرض الطيبة أرض مكة قبل أن يأذن اللّه لك بالهجرة.

ولو حققوا ما هَمّوا به بإكراهك على الخروج؛ لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا زمناً قليلاً، يستأصلون ويهلكون جميعاً بعده.

والواقع أنه ﷺ لم يخرج من مكة بإكراه قريش له ـ وإن كانوا قد هموا به ـ بل كان خروجه بأمر ربه حين أذن له في الهجرة؛ حفاظاً على الدعوة وتمكيناً لها من المضي في طريقها لأداء مهمتها السامية في جو من الأمن والاستقرار، وليسلم منهم ومن أعقابهم من يسلم، فأذن لرسوله بالهجرة، فخرج بإذنه لا بإخراج قريش وقهرهم.

وأسند الإخراج إليهم في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: ١٣].

حدثت موقعة بدر وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً، وقتلوا سبعين من صناديد قريش، وأسروا سبعين آخرين. فلم يتمتع المشركون بمكة بعد خروج الرسول وأصحابه منها. لم يتمتعوا بالأرض ولا بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا فيها.

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء] أي لماذا لم يعتبر هؤلاء القوم بما حدث للأمم السابقة الذين كذبوا رسل الله وآذوهم، فكانت عاقبتهم البوار والخسران. والسُّنَّةُ هي العادة التي لا تتغير. وسُنَّةُ الله لا يستطيع أن يحولها أحد(1).

❁ ❁ ❁

= وفي قوله ﷺ: «أو مخرجي هم»(1)، وفي قول ورقة بن نوفل: ليتني كنت جذعاً إذ يخرجك قومك أسند الإخراج إليهم لهمهم به ومزاولة مقدماته باستفزازهم له ولأصحابه.

(1) قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أي سَنَنَّا سنة في أمم المرسلين قبلك، وهي أن تعذب كل أمة كفرت برسولها وآذته، وجعلته يخرج من بين أظهرها، وذلك بإهلاكها بحيث لا تلبث بعده إلا قليلاً حتى يحيق بها الدمار والنكال، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاء قومه والذين كفروا به بعذاب من عند الله لا قبل لهم به في الدنيا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وإسناد السنة إلى الرسل مع أنها لله جل شأنه؛ لأنها سُنَّت لأجلهم.

وقوله: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي: لا خُلْفَ في وعدها، ولا تتغير في وقتها ونوعها. [التفسير الوسيط].

---

(1) أخرجه البخاري [٣] من حديث عائشة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها، حيث جاء فيه: فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مخرجيّ هم؟».

قال: نعم.. الحديث.

المؤامرة على رسول الله ﷺ

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾[1] [الأنفال].

إن هذه الآية حيثية لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]؛ ولذلك إياكم أن تلتفتوا إلى ما تعطيه الخيانة لكم من مغانم الدنيا؛ لأن الله عنده المغانم العظيمة في الدنيا والآخرة. وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبه الصحابة والمسلمين إلى ذلك قال: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) ﴾[2]

---

(١) عن ابن عباس: في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات عليٌّ عَلَى فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً، يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال. أخرجه أحمد في المسند [١/ ٣٤٨]، وقال الشيخ شاكر [٣٢١٥]: في إسناده نظر من أجل عثمان الجزري. وأخرجه الطبراني في الكبير [١١/ ١٢١٥٥]، وقال الهيثمي في المجمع [٧/ ٣٠]: رواه أحمد والطبراني، وفيه عثمان الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) قال ابن كثير: ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم. حيث كانوا قليلين فكثرهم. ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم، فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك، ومجوسي، ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

[الأنفال]، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فلم يقل: اذكر. لماذا؟ لأن رسول الله ﷺ هو الذي يُذكِّر الناس بفضل الله عليهم، فلا يعقل أن يكون هو المذكَّر، ويُطلب منه أن يَذكُر، وفي نفس الوقت فإن حياة رسول الله ﷺ كلها حياة إيمانية ليس فيها شيء دنيوي يشغل الرسول ﷺ ويجعله ينسى، أما نحن فإن الدنيا قد تشغلنا فننسى، فلذلك لا بد أن يُذكِّرنا الله ورسوله.

إن المكر له وسائل وغايات، وسيلته هي التدبير بخفاء، وغايته هي إيذاء إنسان قوي لا تقدر على مواجهته مباشرة، فتحتال على هذه المواجهة حتى تتمكن منه وهو غير متنبه لك.

ولكن لماذا مكر الكفار؟ الله سبحانه وتعالى ذكر لنا ثلاثة أشياء:

الأول: يمكرون ليثبتوك.

الثاني: ويمكرون ليقتلوك.

الثالث: ويمكرون ليخرجوك.

وقد ذكر الله هذه الأسباب الثلاثة؛ لأنها هي التي اقترحت في الاجتماع الذي عقده كفار قريش، وتشاوروا فيما يفعلون برسول الله ﷺ. فقد علموا أن أهل المدينة من الأوس والخزرج بايعوا رسول الله ﷺ، وأنه مهاجر إليهم، وقد أفزعهم هذا؛ لأن هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ستزيده قوة ومنعة. وإذا كان - وهو في مكة - قد أصبح له أتباع، وفي كل يوم يزداد عدد المسلمين بالرغم من العذاب الشديد الذي يلاقونه والذي وصل في حدته وشدته إلى القتل، فكيف إذا هاجر إلى المدينة وآمن الأوس والخزرج؟ بالطبع ستزداد قوتهم ويهددون قريشاً وزعامتها بالجزيرة العربية، ولذلك اجتمعوا في دار الندوة؛ ليقرروا كيف يتخلصون من محمد ﷺ.

= قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً. وأشقاه عيشاً. وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى في النار، يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر. وأهل الشكر في مزيد من الله.

تفسير ابن كثير [٢/ ٢٨٧، ٢٨٨].

وبينما هم مجتمعون دخل عليهم إبليس في زي أعرابي من نجد وسمع لقولهم: نثبته. فما معنى نثبته؟ التثبيت ضد الحركة، فالسكون ثبات، والحركة ضد الثبات.

إذن.. فهم يريدون أن يقيدوا حركة رسول الله ﷺ؛ لأن حركته تخوفهم. فعندما كان رسول الله ﷺ في مكة بدون حركة إيمانية، لم يكن في وجوده أي خوف أو تهديد للكفار، بل كانوا يأتمنونه على أموالهم ويلقبونه بالصادق الأمين. ولكن تَحرُّك رسول الله ﷺ لنشر منهج الله هو الذي خوفهم. ولذلك فلا بد أن تمنع حركته بأن يقيدوه في مكان أو يحددوا حركته بالسجن. ولكن هذا الرأي لم يوافق عليه المجتمعون؛ لأنهم إن قيدوه أو سجنوه سيأتي المؤمنون ليفكوا عنه القيد، أو يخرجوه من السجن، فكأنهم لم يفعلوا شيئاً. وحينئذ قام آخر وقال: نخرجه من مكة فيذهب لحال سبيله، فيبتعد عنا فلا نقاسي منه ومن دعوته، ولكنهم رفضوا هذا الرأي أيضاً؛ لأنهم إن أخرجوه سيؤثر فيمن يخرج إليه تأثيراً، الأمر الذي يجعل له أتباعاً كثيرين.

واستقر الرأي في النهاية على أن يقتلوه.. ولكن ما هي الوسيلة؟ إن قتله واحد من رجال قريش قام أهل رسول الله ﷺ للثأر وحدثت حروب لا يعلم أحد متى تنتهي. فاقترح إبليس عليهم أن يأخذوا من كل قبيلة فتى من أقوى وأبرع فتيانها في القتال. ويذهبوا إلى بيت رسول الله ﷺ، ويدخلوا عليه وهو راقد في فراشه فيضربوه ضربة رجل واحد، وبذا يتفرق دمه بين القبائل. وحينئذ لا تستطيع قبيلة رسول الله ﷺ أن تواجه كل القبائل، فترضى بالدية وتنتهي المسألة.

إذن.. فقد كان هناك ثلاث اقتراحات، إما التثبيت وهو التقييد أو السجن، وإما الإخراج أي يخرجونه من مكة ويمنعونه من دخولها، أو يقتلونه ويتفرق دمه بين القبائل. كان هذا هو مكرهم. ولكن الله تعالى كان بهم محيطاً، وأعدّ لهم ما لم يستطيعوا اكتشافه، فمهما مكر الكفار فالله تعالى أعلم بمكرهم، وأعد لرسوله ﷺ طريق النجاة الذي لن يصلوا إليه فيه. ولذلك فإن مكرهم لن يحقق شيئاً بل على العكس، سيخيب أثره ويفشل.

وقد حدث فعلاً وخرج رسول الله ﷺ من بيته، بينما ألقى الله النوم على فتيان قريش الواقفين بسيوفهم على باب دار الرسول عليه الصلاة والسلام، وخرج رسول الله، وأمسك حفنة من الرمال ورماها في وجوه فتيان قريش، وقال:

«شاهت الوجوه»[1]، وانطلق رسول الله ﷺ في رحلته إلى المدينة، وحفظته عناية الله حتى وصل إلى المدينة المنورة. وهكذا كان فضل الله بأن حفظ رسوله من مكر الكفار.

---

(١) عن ابن عباس قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية، أريني وَضُوءاً» فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصراً، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: «شاهت الوجوه»، ثم حصبهم بها، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً.
أخرجه أحمد في المسند [١/٣٠٣، ٣٦٨]، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٨٦٢، ٣٤٨٥]، وأخرجه ابن حبان في صحيحه [٦٥٠٢]، وصححه الأرناؤوط.
وقال ابن إسحاق: ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة وهي دار قصي ابن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.
قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال لما أجمعوا على ذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس ـ لعنه الله ـ في هيئة شيخ جليل عليه بت[1] له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: مَن الشيخ؟ قالَ شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قال: أجل، فادخل، فدخل معهم ـ لعنه الله ـ وقد اجتمع فيها أشراف قريش: من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة، ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، ومن بني مخزوم: أبو جهل بن =

---

(١) البت: كساء غليظ من صوف أو وبر.

= هشام، ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج، ومن بني جمح: أمية بن خلف، ومن كان معهم، وغيرهم ممن لا يعد من قريش.
فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً، قال: فتشاوروا ثم قال قائل: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره فتشاوروا عليه، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.
قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟!! والله «لئن» فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا، قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. وقالوا: وما هو يا أبا الحكم: قال: لرأي أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليداً[1] نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً[2]، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل[3] فعقلناه لهم، قال: يقول الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي، لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.
السيرة لابن هشام [٢/ ١٠٠ ـ ١٠٢].

(١) جليداً: قوياً شديداً.
(٢) صارماً: قاطعاً.
(٣) العقل: الدية، وهي المال الذي يعطى لوليّ القتيل.

ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل].

والمكر هو التبييت الدقيق الخفي الذي يصنعه الماكر ليعمى على الممكور به[(١)]، وهذه ظاهرة لا تدل على القوة، ولكنها تدل على الضعف؛ لأن الشجاع لا يمكر، ولكنه يواجه، ولكن الذي يمكر هو من يعجز عن المواجهة مثل الذي يكيد ويرتب أموراً ينفذ بها كيده، هذا أيضاً دليل على الضعف والخوف.

ولذلك يقال: المرأة أقوى من الرجل؛ لأن الله قال عنها: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، وكيدهن عظيم لأن ضعفهن أعظم، ولا يكيد إلا الضعيف. لكن لو أخطأ واحد في حق إنسان قوي فإنه قادر على أن ينتقم منه، ولكنه يتركه من أجل الله، ويقول له: هذه المرة سامحتك لكن لا تفعلها مرة أخرى، فهذا قوي لأنه لا يخشى المرة القادمة، أما الآخر الذي لا يقدر على المرة الثانية، فإنه ينتهز فرصة أول مرة ويضرب ضربته؛ لأنه لا يقدر على غيرها. قال الشاعر:

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إذن.. فالمكر تبييت خفي يبيته الماكر بما يستر عن الممكور به. لكن أنت حين تمكر، فإنك تمكر بواحد مثلك ليس له مدد من جهة ثانية أعلى منك.

إنما الرسل حين تمكر بهم ـ وهم مؤيدون من عند الله تعالى ـ فإذا مكرت

---

(١) قال صاحب القاموس القويم للقرآن الكريم: مكر ـ من باب نصر ـ يمكر مكراً: دبّر الشر لغيره في خفية واحتيال، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١]. أي تدبير سيء بقصد صرفها عن وجهها وصد الناس عنها.

وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه، فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾. وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل].

القاموس القويم [٢/ ٢٣١، ٢٣٢].

بهم فمكرك مكشوف ومعروف لهم. وإذا عرف المكر فلا مكر. وعرفه من يقدر على إبطاله وهو الله سبحانه. فقد يعرف الإنسان مكراً ولكن لا يستطيع إبطاله، والله تعالى يحمي رسله وأنبياءه وينصرهم حتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالات الله إلى البشرية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ [غافر] ولذلك: لعظمة النبي ﷺ وعظمة منهجه، أراه الله كل هذه الأشياء، فحاربه الكفار مواجهة باللسان فاتهموه بالجنون والكذب والسحر والكهانة، وحاربوه مواجهة بالإيذاء، وحاربوه تبييتاً ومكراً، وقد حدث هذا في ليلة الهجرة، فمكروا وخططوا وجاءوا بأقوى وأشجع شبابهم وانتظروا أمام بيت النبي ﷺ حتى يحين وقت تنفيذ الجريمة.

ولكن الله أراد أن يثبت لهم أنهم مغفلون، وأن مكرهم مكشوف ومفضوح وأن الله سيحمي نبيه من مكرهم ويحفظه من كيدهم، فأخرجه أمامهم دون أن يروه[1]، فكأنه سبحانه يطمئنه يخبره ويقول له: لن يُنصروا عليك بأي وسيلة لا باعتداءات

(١) قال ابن كثير: قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد عُلم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية، كيحيى، وزكريا، وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض. قال: وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم[1]، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا، سلط عليهم مِنْ أعدائهم مَنْ أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله =

(١) انظر تفسير الطبري [٢٤/ ٧٤].

اللسان ولا باعتداءات الجوارح، ولا بالمجاهرة ولا بالتبييت، ولا حتى بالاستنصار بالجن، فلن يضروك بشيء. وهذه مسألة وضحت مع جميع الرسل، فهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وحتى يعلم أن الله ناصره ومؤيده ولن يسلمه أبداً لأعدائه.

فالله سبحانه وتعالى أوضح لرسوله ﷺ ما حدث للرسل وكيف أن الله نصرهم ولم يخذلهم. قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة: ٢١] وقال أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[1] [الصافات] فلا تخف يا محمد من مكرهم وتبييتهم لك بالشر؛ لأننا

= تبارك وتعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب»[1]. ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحداً.

وقال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه؛ لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة.

تفسير ابن كثير [٤/ ٨٥، ٨٦].

(١) قال أبو الحسن النيسابوري: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ أي: تقدم الوعد بأن الله =

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٦٥٠٢] بلفظ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

أقوى منهم ونعلم مكرهم ونبطله وسنجازيهم عليه. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] كأن هذا المكر جعلوه بناء، هنا نقل الشيء المعنوي إلى شيء مادي. فكأن الكفار قد جعلوا المكر حصناً يحتمون به ويتحصنون فيه. فالله سبحانه لم يهدم هذا الحصن من أعلى، ولكنه هدمه من أسفل فانطبق سقفه على مَنْ فيه. لذلك قال تعالى: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] أي سقط عليهم سقف هذا الحصن وهم بداخله؛ لأن البناء لو سقط وهم ليسوا بداخله كانت الخسارة خسارة مملوك فقط، ولكن أن يقع عليهم وهم بداخله فهذه خسارة مملوك ومالك، وكل هذا تشبيه لمكر الكفار بالدعوة وصاحبها ﷺ في عهده وعهد مَنْ سبقه من الرسل. وقوله: ﴿ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يدل على أن المكر الذي بنوه ورتبوه وخططوا له سقط على رؤوسهم؛ لأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله[١]. فقد تجد إنساناً عنده ولد يريد أن يزوجه. فبدلاً من أن يبحث له عن ذات الدين، تجده يختار له بنت فلان القوي الذي عنده أولاد أقوياء؛ لكي يحموه هو وابنه ويعيش في حمايتهم وكنفهم، فإذا حدث أي خلاف تجد هؤلاء الذين اختارهم وفضلهم لقوتهم وفتوتهم انقلبوا عليه؛ لأنه مكر مكراً سيئاً، ولم يهتم بجانب الدين والتربية والخلق.

وقوله تعالى: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يفيد أن الحادث وقع فجأة وبغتة لهم؛ لأن البغتة تشل الحركة، وتوقف التفكير؛ ولذلك كان العرب يشنون حروبهم في الصباح؛ لأن العدو يكون غير مستعد؛ لأنه يكون خاملاً من النوم وليس عنده استعداد للحرب.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لا يشعرون لماذا؟ لأنهم مكروا وبيتوا وهم يفهمون أن هذا المكر سيخفى علينا، فحين يأتيهم العذاب يأخذهم بغتة وعلى غرة دون أن يتوقعوه. فيأتيهم من تحتهم ومن فوقهم ومن حيث لا يشعرون[٢]. ليس هذا فقط، بل إن لهم عذاباً في الآخرة.

= ينصرهم بالحجة والظفر بعدوهم، قال مقاتل: عنى بالكلمة: قوله: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ هذه الكلمة التي سبقت ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة في العاقبة؛ لأنهم ينجون من عذاب الدنيا والآخرة.

الوسيط في تفسير القرآن [٣٠/ ٥٣٥].

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

(٢) يقول في التفسير الوسيط: والمعنى: قد تآمر الذين من قبل قريش على رسلهم، فدبروا لهم المكايد، ليهلكوهم أو ليقضوا على الحق الإلهي الذي جاءوا به أممهم، فأحبط الله =

فالله سبحانه حين هدد الكفار وتوعدهم بعذاب الآخرة لم يتركهم في الدنيا بدون عقاب، ولكنه يذيقهم العذاب الدنيوي أحياناً حتى يكونوا عبرة لغيرهم. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور]. ومعنى قوله: ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: أقرب من الآخرة يقع لهم في الدنيا قبل الآخرة. هنا العكس، هذا عذاب في الدنيا؛ لأن العذاب أتاهم من تحتهم، وخر عليهم السقف وجاءهم العذاب من حيث لا يشعرون.

وبعد ذلك تقول الآيات: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل: ٢٧] والخزي هو الهوان والمذلة، وهو للمستكبرين أقوى من العذاب والإيلام؛ لأن الضرب يمكن أن يتجلد فيه، ويتحمل. كما قيل:

وتجلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع

فقد يصبر الإنسان على الضرب ويكتم ألمه، ولكن الخزي لا يستطيع أن يكتمه؛ لأن الخزي قشعريرة تغشى البدن وتعلو الوجوه لا يستطيع أن يفلت منها، إنما الآلام الجسدية يمكن أن يكتمها. ولكن الخزي ألم نفسي والآلام النفسية تنضح على البشرة مهما حاول الإنسان أن يكتمها. فأنت ترى الإنسان تعرفه من شكله إن كان حزيناً أو سعيداً، فالخزي يقتل خميرة الاستكبار في البدن.

ولذلك يضرب الحق سبحانه وتعالى لنا المثل يقول: ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] التذوق دائماً يكون في اللسان، فأنت تتذوق أي شيء في فمك، وبعد أن يمر إلى بطنك ينتهي التذوق. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الجوع أصبح لباساً يلبسه الجسم، فيشعر به الجسم كله ويحس بألمه؛ لأنه يريد أن يعطي الصورة قوة ويعمم الألم على الجسم. فساعة يحدث الإذلال للمتكبرين، فهذا أصعب عذاب لهم، وخاصة أمام الذين كانوا يتبعونهم ويعظمونهم.

= كيدهم، وسقط عليهم بنيان المؤامرة التي دبروها، دون أن ينال الرسل منها كريهة.
وشبهت حال الماكرين برسلهم في تدبير مكايدهم التي أرادوا بها الإيقاع برسل الله وفي إبطال الله تعالى تلك الحيل والمكايد، وجعلها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: أتاهم الهلاك والدمار من جهة بنيانهم الذي أقاموه ضد الرسل، وقد كانوا يظنون أنه محكم بحيث لا يأتيهم من جهته ما يؤذيهم، فخيب الله ظنهم وجعله سبب هلاكهم في دنياهم. وكذلك أنتم يا أهل مكة، أحكمتم أمركم ضد القرآن العظيم، وقلتم فيه ما قلتم، ومن جملته أنه أساطير الأولين، فسيأتيكم العذاب في الدنيا من حيث لا تحتسبون كما فعل الله بمن قبلكم، إن ظللتم على كفركم.

ثم يأتي التحدي في قوله سبحانه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧] أين الذين جعلتموهم شركاء لي؟ لماذا لم يأتوا لنصرتكم في هذا الموقف؟! في هذا اليوم يعترف الكفار على أنفسهم بعد أن تخلى عنهم شركاؤهم؛ فيقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء].

إذن.. أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم؟ لماذا تخلوا عنكم؟ ومعنى ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: من الشق، والشق صدع بين شيئين، مثل أن تشق جداراً أو لوح زجاج أو غير ذلك.

فمعنى: ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: جعلتموهم شقاً وجعلتم المؤمنين ومن معهم شقاً، فكأنهم جعلوهم خصمين، فتشاقون أي تقسمون المسألة، فأنتم في جانب الباطل وغيركم في جانب الحق، فأنتم تشاقون بسببهم، فأين هم الآن؟ لماذا لم يأتوا لينصروكم[1]؟

❁ ❁ ❁

---

(١) ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧] أي ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل الله المشركين بعذاب الخزي على رؤوس الأشهاد، ويقول لهم تفضيحاً وتوبيخاً: أين شركائي في الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقذوكم إن كنتم صادقين في مزاعمكم نحوهم، وهيهات أن يجدوهم شافعين أو منقذين؛ بل لائمين مكذبين.
[التفسير الوسيط].

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى:
ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ، فيقول لهم: أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها، قائلين: إنكم لا بد لكم أن تشركوهم معي في عبادتي!
وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢].
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء].
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ...﴾ [غافر]. الآية.
وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].
أضواء البيان [٣/ ٢٣٦].

أوائل المهاجرين

يتفق موسى بن عقبة وابن إسحاق على أن أبا سلمة بن عبد الأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة. فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة[(١)].

وكذلك فإن مصعب بن عمير وابن أم مكتوم كانا من أوائل المهاجرين حيث كانا يقرئان الناس القرآن[(٢)]. وقد تتابع المهاجرون فقدم المدينة بلال بن رباح وسعد ابن أبي وقاص وعمار بن ياسر ثم عمر بن الخطّاب في عشرين من الصحابة[(٣)]. وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة. لكنْ شيئاً من ذلك كله

---

(١) قال ابن هشام في السيرة [٢/ ٨٦]: فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً.
وانظر دلائل النبوة للبيهقي [٢/ ٤٦٠]، والبداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٦٩] وجاء في صحيح مسلم [٩١٨/ ٣] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: أي المسلمين خير من أبي سلمة: أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ.

(٢) عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله تعالى عنهم».
أخرجه البخاري [٣٩٢٤].

(٣) عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانوا يُقرئون الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر. ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ثم قدم النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ، فما قدم حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ في سور من المفصل».
أخرجه البخاري [٣٩٢٥].

لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة.

قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره. فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة.

قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريباً منها؛ حتى مرّ بي رجل من بني عمر ـ أحد بني المغيرة ـ فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. وما معي أحد من خلق الله.

قالت: فقلت: أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أوما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله إلا الله وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير. فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحّله.

ثم استأخر عني فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة. وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة»[(١)].

وقد سقت الخبر بطوله لما فيه من دلالة على الصعوبات التي واجهها المهاجرون، وهي تشير إلى أثر العصبية في اتخاذ العشائر القرشية مواقفها من الأحداث. فقد انحاز قوم أبي سلمة إليه رغم مخالفتهم له في العقيدة، ثم إن الخبر يكشف عن صورة من صور المروءة التي عرفها المجتمع القرشي قبل الإسلام تتمثل في موقف عثمان بن طلحة وتطوعه في مصاحبة المرأة وإحسان معاملتها مما يدل على سلامة الفطرة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة مع المرأة المسلمة.

وثمّة صورة تاريخية لحدث آخر هو هجرة عمر بن الخطّاب كما حدّث بها بنفسه قال: «اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص ابن وائل السهمي، التناضب من أضاءة بني غفار فوق سَرِف[(٢)]، وقلنا: أينا لا يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه.

قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنها هشام، وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/ ٨٦ ـ ٨٨]، وابن الأثير في أسد الغابة [٧/ ٣٢٩]، وابن حجر في الإصابة [٨/ ٢٢٢].

(٢) التناضب: ضرب من الشجر، وأضاءه بني غفار على عشرة أميال من مكة، والأضاءة: الغدير وسرف: واد من أودية مكة دخل في العمران حالياً.

هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة ـ وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ـ حتى قدما علينا المدينة ـ ورسول الله ﷺ بمكة ـ فكلَّماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، فرقَّ لها.

فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم.

فقال: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما.

فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول. فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما. حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى.

قال: فأناخ وأناخ ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عَدَوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم.

قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص.

قال: فقال هاشم: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى[1] أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها. حتى قلت: اللّهم فهمنيها.

(١) ذوي طوى: وادٍ بمكة.

قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ(١).

وأما ما روي من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به بثكل أمه فلم يصح(٢).

لقد نزل كثير من المهاجرين في قباء في مكان يسمى «العصبة» قبل مقدم رسول الله ﷺ، وكان سالم بن معقل مولى أبي حذيفة يؤمهم في مسجد قباء، لكونه أكثرهم قرآناً(٣).

السيرة النبوية الصحيحة [١/ ٢٠٢/ ٢٠٧].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البزار في مسنده [١٣٤٥ ـ كشف] وذكره الهيثمي في المجمع [٦/ ٦٤] وقال: رواه البزار ورجاله ثقات. وأخرجه الحاكم في المستدرك [٢/ ٤٣٥] مختصراً، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) عن عبد الله بن العباس قال: قال لي علي بن أبي طالب: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، ويرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه.

ذكره ابن الأثير في أسد الغابة [٤/ ١٤٤، ١٤٥].

(٣) عن ابن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأولون العصبة ـ موضع بقباء ـ قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة، وكان أكثرهم قرآناً.

أخرجه البخاري [٦٩٢].

بدء الهجرة النبوية المباركة[١]

ما دام الإنسان قد آمن بأن العبادة لا تجوز إلا لله وحده، والاستعانة به جل

(١) عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ قالت: «لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدِّين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشية. فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ـ وهو سيد القارة ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرج ولا يُخْرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فأنا لك جار. ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرج مثله ولا يُخْرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به؛ فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر لذلك يعبد ربه في داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان أبو بكر رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن؛ فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره؛ فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل. والنبي ﷺ يومئذ بمكة.

فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان» فهاجر من هاجر قِبلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسلك، فإني أرجو أن يُؤذن لي».

=

شأنه. ما دام هذا الإيمان قد استقر في القلب وظهر في السلوك، فلا بد أن ينصر

= فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟

قال: «نعم».

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل.

قال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج مَنْ عندك.

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله.

قال: فإني قد أُذن لي في الخروج.

فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ: «نعم».

قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

قال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل ـ وهو لبن منحتهما ورضيفهما ـ حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغَلَس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خِرِّيتاً ـ والخرِّيت الماهر بالهداية ـ قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل».

أخرجه البخاري [٣٩٠٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وُلد النبي ﷺ يوم الإثنين، واستُنبئ يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين». =

الخالق سبحانه عبده المؤمن على خصوم الإيمان. وهنا نحب أن نذكر حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان، إن على المؤمن ألا يعتقد أن هناك مخلوقاً من مخلوقات الله قادر على أن يقف معانداً لله تعالى، إنما يقف الخلق المعاندون بعضهم لبعض في صراع بينهم؛ لذلك فإننا نجد في العادة أن القوي يهزم الضعيف. لكن إذا التحم الضعيف المؤمن بمنهج الله ضد خصم معاند فإن خصمه لن يقدر عليه حتى ولو كان الخصم قوياً، ولسوف يكون الانتصار للضعيف المؤمن الملتزم بمنهج الله على الذي تخيلنا أنه قوي، لكن قوته مجردة من الإيمان(١).

ولنأخذ من هجرة الرسول الكريم ﷺ درساً؛ لقد هاجر الرسول ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصديق إلى المدينة؛ ليقي المؤمنين هذا العذاب الذي كانوا يتعرضون له من قِبَل كفار قريش.

ودخل الرسول ﷺ ومعه أبو بكر إلى غار ثور؛ يحتميان فيه من الكفار الذين خرجوا للبحث عن محمد ﷺ، هذا الذي حطم آلهتهم وسفه أحلامهم. وكلنا نعرف قول أبي بكر الصديق لرسول الله ﷺ في هذه اللحظة: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا»، وكان رد الرسول الكريم ﷺ على صاحبه أبي بكر واضحاً جلياً يبعث على الاطمئنان؛ لقد قال الرسول الكريم ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(٢). والقرآن الكريم يؤكد هذا القول الواضح بهذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ

= أخرجه أحمد في المسند [١/ ٢٧٧]، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٥٠٦]. وقال ابن كثير في البداية والنهاية [٣/ ١٧٥]: وقد كانت هجرته عليه السلام في شهر ربيع الأول، سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام وذلك في يوم الإثنين.

(١) قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: كم من جماعة قليلة العدد والعدة استعصمت. بإيمانها بالله، توكلت عليه غلبت فئة كثيرة العدد والعدة بإرادة الله ونصره فإن النصر من عند الله، لا بكثرة الجنود، فلا ينبغي لنا أن نستقل أنفسنا فنجبن عن لقاء عدونا.

[التفسير الوسيط].

(٢) عن أنس أن أبا بكر الصديق حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

أخرجه البخاري [٤٦٦٣]، ومسلم [٢٣٨١].

﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾[1] [التوبة]. إن هذا القول الفصل يوضح لنا أن الإيمان المطلق بالله تعالى، وبأنه مالك كل الأسباب قادر أن يبعث الطمأنينة والسكينة في قلب الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر. والله القوي القادر قد صرف بقدرته نظر الكفار عن الرسول ﷺ وصحبه وهما في الغار.

---

(١) قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي بالخروج معه إلى تبوك ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة حين مكروا به، فصاروا سبب خروجه، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ حال من ضميره عليه الصلاة والسلام. أي أحد اثنين ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ بدل البعض؛ إذ المراد به زمان متسع. و﴿الْغَارِ﴾ نقب في أعلى ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً؛ ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهما، ثم يسيرا إلى المدينة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان، أي رسول الله ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أي: أبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ وذلك أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أشفق من المشركين أن يعملوا بمكانهما، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى، وطفق يجزع لذلك، فقال له رسول الله ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بالنصرة والحفظ. ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي أمنته التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على النبي ﷺ ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله: ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وقوّى أبو السعود الوجه الثاني بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم.

قلت: لا إباءة؛ لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية في كل حال، وفي الثاني تفكيك في الأسلوب لبعد المتعاطفين، فافهم. والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ أي: المغلوبة المقهورة، والكلمة: الشرك، أو دعوة الكفر، فهو مجاز عن معتقدهم الذي من شأنهم التكلم به على أنها الشرك، أو هي بمعنى الكلام مطلقاً على أنها دعوة الكفر ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام كما تقدم، أي التي لا تزال عالية إلى يوم القيامة ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ بالرفع على الابتداء و﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ مبتدأ وخبر. أو تكون ﴿هِيَ﴾ فعلاً. وقرئ بالنصب أي: وجعل كلمة الله، والأول أوجه وأبلغ؛ لأن الجملة الإسمية تدل على الدوام والثبوت. وإن الجعل لم يتطرق لها؛ لأنها في نفسها عالية لا يبتذل شأنها ولا يتغير حالها. وفي إضافة «الكلمة» إلى «الله» إعلاء لمكانها، وتنويه لشأنها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالب على ما أراد ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وتدبيره.

تفسير القاسمي [٨/٣١٥٦ ـ ٣١٥٨] بتصرف.

ومن هذه الحكاية نستفيد ما يلي:

أن أي صراع يحدث بين إنسان وآخر قد يكون أحدهما قوياً أو يكونان متساويين في القوة، فإن الغلبة والانتصار سيكونان للأقوى أما إذا قام صراع بين إنسان مؤمن وآخر غير مؤمن، فإن الغلبة ستكون للإنسان المؤمن ما دام قد آمن بالله، ولن ينتصر عليه أحد إلا إذا شرد بعيداً عن منهج الله. نضرب مثلاً على ذلك لتقريب المسألة العقائدية ـ ولله من قبل ومن بعد المثل الأعلى ـ لنفترض أن رجلاً له غلام صغير، ووقف الرجل؛ ليتحدث إلى صديق له، وذهب الغلام الصغير بعيداً عن أبيه ليلعب في الشارع، وتصدى لهذا الغلام الصغير أطفال أكبر منه في القوة والعمر، فلمن يلجأ الغلام؟ لا بد أنه سيلجأ إلى أبيه. وفي اللحظة التي يلجأ الغلام لأبيه يصاب الأولاد الأكبر منه بالخوف؛ لأن للطفل أباً قوياً وأن الوالد قادر على حماية ابنه.

يحدث ذلك من أب وابن، كليهما مخلوق من مخلوقات الله. فما بالنا بالخالق لكل الوجود. ماذا يحدث عندما يحتمي صاحب حق ضعيف بالخالق سبحانه؟! ما بالنا بإنسان بذل كل ما في طاقته؛ لتحقيق هدف في حدود منهج الله، فتكاثر عليه المكذبون بمنهج الله، فاستنجد هذا الإنسان المؤمن بالحي القيوم.

إن الحماية هنا لن تكون حماية أب لابنه، ولكنها حماية خالق لمخلوق. لذلك فعندما يقف عبد مؤمن ملتزم بمنهج الله، فلا بد أن يهزم العبد المكذب بمنهج الله واقرأ قول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾[1] [الزمر].

(١) قال القرطبي: الكفاية شر الأصنام، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام. ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٨١]، وقال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قول تعالى: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان، فقالوا: أتسب آلهتنا؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء. وقال قتادة: مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها: أحذركها يا خالد؛ فإن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ؛ لأنه الذي وجه خالداً. ويدخل =

بهذا المنطق الإيماني كان الرسول الكريم ﷺ يواجه قريشاً بكفرها وجهلها وجاهليتها. لقد اختاروا الضلال وأبَوْا أن يُسلموا مع الرسول ﷺ لله الواحد الأحد، فكانت النتيجة الحتمية أن انتصر الرسول ومن معه، واندحر الشرك وحزبه. وهكذا الإنسان المؤمن بالله تعالى.

❁❁❁

= في الآية تخويفهم النبي ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر].

تفسير القرطبي [١٥/ ٢٥٧، ٢٥٨].